حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

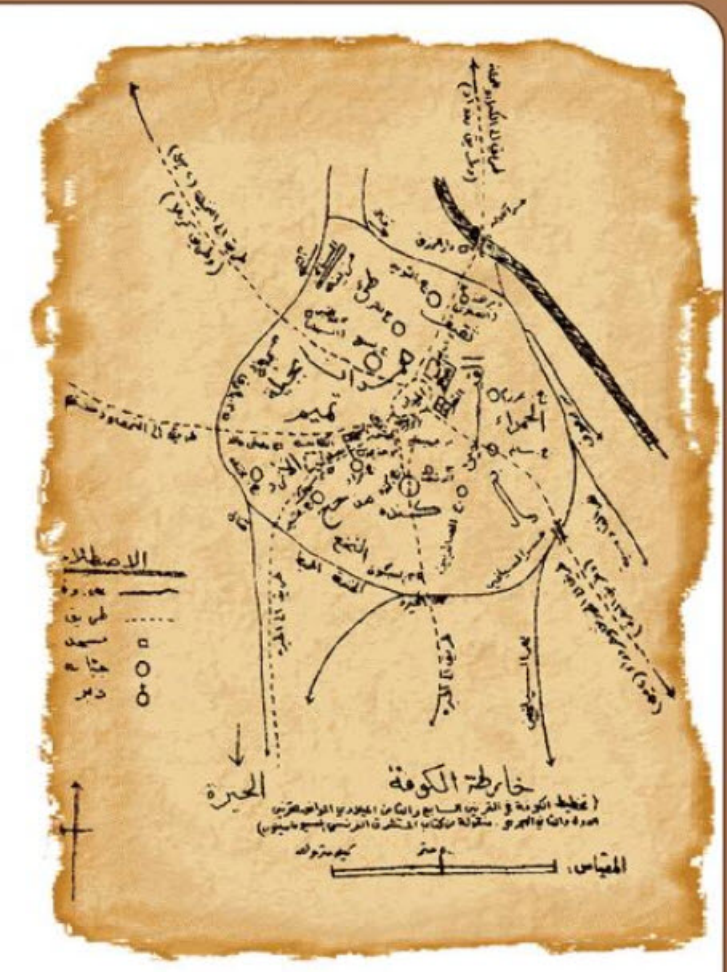

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الجذر الحضاري لإقليم الكوفة والسؤال الفلسفي/ العربي الإسلامي

الأستاذ الدكتور علي حسين الجابري

كلية الآداب- جامعة بغداد

المقدمة

الإنسان و(الطبيعة الجغرافية والبيئة الاجتماعية) فحويان مضروبان بعامل الزمن، وبشواخص الحضارة، يكشفان عن الدور التاريخي لأي مجتمع.

نعم: الإنسان والمحيطان الجغرافي والبشري، هما عنوان كل حضارة لكن مثل هذه المعادلة ليست دائمة الصدق للإجابة عن سؤال: متى يكون الإنسان كائناً حضارياً؟ يقول للآتين أنه المسرح الجغرافي مهما كان مؤاتياً: لا يعطي مجتمعه حضارة إلا بمقدار وعي ذلك المجتمع لحريته، وعلانيته لكي يبدع كل واحد من مبدعيه، وينبغ القادر على النبوغ من أبنائه ليحقق فائضاً في الجهد والزمن والقيمة.

ومثل هذا الإبداع لا يتجلى في حياة الجماعة، لا إذا كانت علاقة الناس مع بعضهم (إيجابية= جدلية، أخلاقية، علمية) إنسانية: لتأتي علاقة هذه الجماعة مع محيطها الجغرافي إيجابية هي الأخرى، ويكون فيها الإنسان سيداً مسيطراً، قائداً بعقله وقدراته وحكمته وإرادته الحرة ومؤسساته المساعدة على تحقيق التوازن في أسلوب عيشه وطريقة تفكيره، وإنتاجيه، وسلوكه القيمي والجمالي؛

هكذا أذن نفسر أسباب تعطل عمل القانون الحضاري لمجتمع ذي بيئة جغرافية مؤتية في حقبة من الحقب، دون غيرها ونضوج عطاء ذلك المجتمع في حقب أخرى تكون فيها العلاقة بين (المواطن وجماعته) ومرجعياته السياسة والعقيدية، ومحيطه الطبيعي، إيجابية جدلية، تأخذ وتعطي: فيبدع ويتقدم. هذا هو دأب بيئة العراق بعامة منذ آلاف السنين، ومثل ذلك يقال عن (الجزء فيه) إقليم الكوفة في عصوره عن القديمة والإسلامية حين ورث ثمار (حضارة الحيرة وهي ترث بابل) وإن كانت تحت ظلال الإسلام، وعقيدته الحية: ذات فرص إيجابية للإبداع والحضارة.

عندما صلحت العلاقة بين (الجماعة) والمحيط الجغرافي، كان ابتعاد النفوذ الأجنبي الفارسي والبيزنطي عن الساحة، وكانت الدولة الجديدة عنوان النهوض في حقبة جديدة، وفرت شروط البناء الحضاري باركانه (العلمية والفلسفية والعقيدية).

أما كيف طبعت الحقبة (النبطية السريانية/ المسيحية/ الحنفية). الوارثة (للحضارة البابلية- الآشورية- الاموريه- الاكدية- السومرية) بطابعها التراث المزدوج (الخاص) و(العام) خلال القرون (الثالث ق.م- السابع الميلادي) وكيف لبس جميع هذا التراث، الثوب العربي/ الإسلامي، بعد أن اسبغ عليها هويته، ولغته، ورؤاه، لتكون (الكوفة) فيه، المعمل الذي يحرك الأحداث، مرة حين أصبحت ثاني حاضرة للمسلمين خارج حدود نجد والحجاز، وأخرى حين أصبحت ثاني عاصمة لدول الخلافة الراشدية بعد المدينة المنورة وثالثة حين استقطبت الأحداث والحوادث بعد واقعة كربلاء عام (٦١هـ) ورابعة لما أصبحت مركز زهد، وفكر وتصوف وفقه وإبداع علمي ولغوي، وفلسفي، وبفضل ما اختمر فيها من خميرة، ويفعل عقول متوقدة، كانت تطرح الأسئلة الفلسفية والكلامية وتجيب عليها، مثل (أبو حنيفة النعمان بن ثابت) و (هشام بن الحكم، وجابر بن حيان، وأبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي، والمتنبي؟ أي الفقيه، والمتكلم والعالم الكيميائي، والفيلسوف والشاعر:).

وإذا كانت الذاكرة الشعبية لسكان هذا الإقليم الممتد من الخليج إلى الجبل ومن الشط إلى الصحراء؛ قد احتفظت بصدى ذكريات المصير في ملحمة جلجامش الوركائي، وما ينطوي عليه من سؤال فلسفي -اجتماعي؛ والذي في العلى (إينوما ائيليش) وما يحتويه من سؤال فلسفي كوني عن الوجود والحياة، فان، قصص (لا مجده رب الحكمة)-صبر أيوب- عليه السلام وقصيدة دلمون (جنة عدن) وغيرها من نصوص، كانت في جوهرها ذخيرة هذا الإقليم الذي تفاعل فيه (حب العدالة والنظام) بقيام الدولة وازدهار التاريخ، والعلوم الدقيقة، فكان بحق مركزاً للتشريع ومنبتاً للشرائع السماوية لموحدة والأرضية: إلى جانب مؤثرات التعدد والتنوع والوحدة والشمول فنا وفكراً ولغة وعقيدة.

جميع ذلك ستورثه العقل الرافدي (الخاص) إلى العقيدة الجديدة العامة (الإسلام المحمول على الأكتاف (العربية- الإنسانية) في إقليم الكوفة: الوارث لإقليم بابل بمعناه السياسي والجغرافي والتاريخي.

أن الحديث عن هذا الإقليم، يدخل في باب (علاقة الجزء بالكل) يعني الحديث عن العراق، بإمبراطورياته الخمس التي امتدت إلى الأناضول شمالاً، والساحل الشامي غرباً، والمحيط الهندي جنوباً وجبال زاجروس شرقاً، وأعني بها (السومرية-الاكدية) والامورية والآشورية، والكلدانية، لتصل بنا إلى الدولة العربية الإسلامية الممتدة من الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا غرباً...

أن ما نعرضه في هذه الدراسة عن الجذر الحضاري الكوفي والسؤال الفلسفي هو مغزى هذا العنوان، وخلفياته: ونتائجه: ليغطي الحقبة الممتدة طوال خمسة آلاف سنة فعسانا نوفق في مسعانا هذا الذي يأتي موازيا لاحتفال مركز دراسات الكوفة بمرور أربعة عشر قرناً على قيام هذه المدينة في إقليمها الممتد في عمق الصحراء شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من الماء إلى الصحراء ومن الجبال إلى البادية: والمولد الحضاري لأرض السواد والسهل الرسوبي كمركز استقطاب وفاعلية، تمتد على مساحات شاسعة تتسع وتنحسر بحسب الظرف السياسي للدولة العراقية.

أولاً: الجذر الحضاري للسؤال الفلسفي في إقليم الكوفة.

١- الكوفة بيئة حضارية ودور عمراني:

تحدثت في مناسبة سابقة[١] عن الجذر الحضاري والظروف التاريخية التي جعلت من هذا الإقليم بيئة حضارية تحكي قصة صراع الإنسان من أجل الحياة الفاضلة؛ قبل خمسين قرنا والتي لم يحل سقوط بابل سنة ٥٣٩ ق.م دون تدفق التراث عبر السريانية إلى ميادين العلم والمعرفة المزدهرة في هذا (المركز الإسلامي) الأمامي الذي انطلقت منه فتوح الشرق كله.

لقد ورثت هذه المدينة بيئة حضارية خصبة واستحضرت مناخاً حضارياً عقلانياً وعلمياً ثراً ضم شتات التراث الإنساني ولبابه، منذ خطت يد الإنسان الحروف الأولى للأبجدية والكتابة في تاريخ الإنسانية في الألف الثالث للميلاد، لتحفظ لنا صيرورة الحضارة بأبعادها المادية والروحية والنفسية والعمرانية.

وكان ابن هذا الإقليم (العربي المسلم) الوارث لأجوبة السابقين، من المذكورين في الكتب المقدسة ومن الآخرين الذين نوهت بهم هذه الكتب تنويهاً، متمثلاً، لأجوبة جلجامش واوركاجينا واورنمو وكوديا وآداباً، وهرمس البابلي وبرعوثاً، إلى جانب وراثته لمجد الرسالات الموحدة، الحنيفية، التي نقلت الإنسان من التعدد والشرك، إلى التوحيد الخالص، أو ما أسميناه (بثورة الميتافيزيقا)[٢] التي عدت فقرة نوعية في تاريخ الوعي الإنساني حررته من قيود المادة الطبيعة المنفعلة إلى ما وراءها وانطلاقاً من (ثلاثية الحاجات) و(المكونات) استقام الإنجاز العلمي والحكمي والعقيدي الذي تفاعل في هذا الإقليم إسلامياً، وشع على المسلمين، شرعاً وعقلاً وكلاماً وسياسةً وحكمةً، وأدباً، ولغةً وعلماً.. أنه الدور العمراني الكوفي المشهور ومن أهم سمات هذا الإقليم الزمكانية/ اجتماعية/ حضارية.

أ- العراقة والأصالة: فهو يمتد زماناً من الألف الخامس قبل الميلاد إلى حين قيام حواضر عربية بديلة، ومكاناً يمتد مع قلب العراق في السهل الرسوبي (أرض السواد) الوارث لإقليم بابل الحضاري الذي شهد:

أ/١ قيام أقدم المستوطنات العمرانية؛ أقدم مدرسة، ومكتبة ودار قضاء، ومعبد ومركز علمي، ومركز حضاري.

أ/٢ أقدم مركز حضاري اقترن بالعراق (أوروك- الوركاء) ما وصل إلينا من نصوص تتحدث عن السؤال الفلسفي المتعلق بمصير الإنسان والخلود المعنوي، (الملحمة) القائمة على فكرة (الأعمال الجلية) بجلجامش الشهير.

أ/٣ اعرف التصورات عن فكرة الخلق، وظهور الحياة، وقصة الخليقة والعصر الذهبي، وشروط توازن بين الأشياء، واعتدال الحياة والتوفيق بين مطالب الجسد والعقل والقلب ممثلة بقصيدتي (صبر أيوب ودلمون).

ب- العدالة ودولة القانون: وحدود الحقوق والواجبات وحب النظام مثله أقدم نصوص الإصلاح والثورات التحررية والقانون والشرائع ووحدة المعايير والأوزان والأطوال وأعني به (نص إصلاحات أو ركاجينا وشريعة اورنمو وقوانين حمورابي) وأقدم ذكر لكلمة (الحرية آ- مار- جي) في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

جـ- ثورة الميتافيزيقا: (ما وراء الطبيعة) ممثلة بعقيدة التوحيد الإبراهيمي المنطلقة من (أور- بابل) لإبراهيم الخليل عليه السلام والتي اتسعت إلى حران فالخليل فمصر فمكة المكرمة والكعبة المشرفة: في (القرن الثامن عشر قبل الميلاد) قدم فيها أقدم منهج للتهكم والتوليد المعرفي، قبل سقراط بخمسة عشر قرناً

(١) علي حسين الجابري: ورقة بعنوان: الكوفة بيئة حضارية ودور عمراني، مقدمة إلى المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب/ الكوفة يومي ٢٠و٢١ كانون الأول ١٩٩٢.

(٢) بسطنا القول في هذا وغيره مفصلاً في كتابنا: الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق وحضارة اليونان. بغداد(١٩٥٩ص ٢٤) ١٠٧ وبخاصة ص ٧٩- ٨٨.

وأكثر وسائل التضحية إثارة، ونكران الذات (قصة إسماعيل الذبيح)!

وللمرة الأولى يتجاوز العقل الإنساني في تصوراته العقيدية حدود الطبيعة الفلكية المرئية إلى ما خلفها ليتحدث عن القوة المدبرة الله سبحانه وتعالى الكامنة خلف هذا الوجود المتبدل المتغير الوقتي الزائل.

د- التفاعل الاجتماعي: وما يتعلق بمواجهة مشكلات الطبيعة والحياة وقضايا الجفاف والعقم، واختلاف الناس طبقياً؛ والكوارث الطبيعية فكانت الحلول التي قدمها (نوح عليه السلام وآداباً وأيوب عليه السلام وكوديا وهرمس لقمان عليه السلام يكمل خطط الآخرين في التكامل الاجتماعي والتعاون والألفة والمحبة ومواجهة الصعاب بوحدة وتماسك وصبر، وثبات تشهد عليها قصص الأنبياء في هذا الإقليم.

هـ- ازدهار العلوم: المتعلقة بحل مطالب الحياة الإنسانية، ومواجهة الأمراض، والفيضانات، وحساب الزمن والتقويم، والتغير الفلكي، وعلوم الفلاحة والتنجيم، والفيزياء والكيمياء والجبر والرياضيات، والجغرافية والتاريخ...الخ. شاخصاً برموزه المعروفة هرسن وكليت، ونبوريان، وكدينو، وبرعوثا.. وغيرهم من الأعلام المشهورين.

جميع ذلك اختزنه العراق وإقليم بابل العريق، على الرغم من تعرض الدولة الكلدانية، إلى تأمر الغرباء، وأطماع الجيران، فسقطت عام ٥٣٩ ق.م. مع ذلك حرص الاسكندر المقدوني (ت ٣٢٢ ق.م) على أن يختار بابل عاصمة شرقية لإمبراطوريته الممتدة إلى الصين، واحتفت به طوال ثلاثة أيام بلياليها. لكنه مرض وتوفي ودفن شمال بابل في منطقة (الإسكندرية).

وكان من علامات عراقة هذا الإقليم قبيل الإسلام، استقرار المانوية وأرباب العقائد المختلفة فيها إلى أن تراجع دورها بعد قيام (سلوقية- والمدائن) إلى جانب الحيرة وتكريت ونينوى التي استو رثتها للاحقين من الفاتحين المسلمين المحررين لهذه الربوع من سطوة الساسانيين والبيزنطيين؛ والساعين إلى خلافة الإنسان على الأرض، وعبوديته لله الواحد القهار. وحرية الجميع لتكون الكوفة ثاني حاضرة إسلامية، وثاني عاصمة للدولة الراشدية في عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (٣٥-٤٠هـ).

٣- نماذج من جدل الأصالة والمعاصرة في إقليم الكوفة: لم يكن الباعث على إثارة الأسئلة الفلسفية في هذه الدراسة، (الدهشة) التي تتحدث عن طبيعة (الظواهر والمشكلات) الكونية والاجتماعية الكامنة وراء قيام العلوم والفلسفات والعقائد، بل الباعث عليها قضايا ثلاث، هي في بنية القياس المنطقي لا تخرج عن المقدمتين والنتيجة اجتمعت لترسم أبعاد هذه الإشكالية، وأعني بثلاثية (المسألة والمواقف والمذهب)، المسألة بتعلق بسؤال فقهي أصولي. عن (عقل=الدية) المرأة إما الموقف فمتعلق (بالنص).

والمذهب يتصل بتوظيف (العقل) لإصدار حكم عن هذه المسألة في إطار (مدرسة الرأي الكوفية) كما يراها أبو حنيفة النعمان ابن ثابت (ت ١٥٠هـ) في مقابل موقف فقهاء (المدينة المنورة) من أهل الحديث الملتزمين (بالنص).

الإشكالية كما بدت لكاتب هذه السطور، تتمثل بالتقابل بين (نصية المدينة) و (عقلانية الكوفة)، وكلاهما يعبران عن المناخ الحضاري لكل منهما من غير أن ينصرف الذهن إلى تقاطع أو تضاد أو تناقض، ما دام الهدف واحد والغاية تتصل بقضية وموقف وحكم.

نعم، لا ينفصل تحليل أوجه (الحكم) في هذه القضية مع اختلاف الوسيلة، عن المناخ الحضاري لكل إقليم، على الرغم من وحدة المنطق والمرجع العقيدي، ما دامت العقول التي تفحص هذه القضية، قد استوعبت النص، وتعاملت مع الموقف كل بوسيلته؛ هذه العقول تعلم جيداً إنها تنتمي إلى دين جاء مستوعباً للسوابق العقيدية الموحدة مثلما هو الأمر لقضية الإنسان، والعدالة، منظوراً إليها بمعايير (العدالة) التي لا يختلف عليها حكم في نص أو رأي لعاقل بعد أن ارتقت من النظرة التجزيئية التعددية (المشركة) إلى التنزيه المنطلق. (ثورة الميتافيزيقا)، مثلما ارتقت بالإنسان من وطأة الشعور بالإثم أو الدونية أو الخطيئة الأولى، التي ضحى السيد المسيح عليه السلام من أجل تحرير الإنسانية، ليكون منقذا لها ومخلصا: بأمر إلهي، والتي هيأت المقدمات الضرورية والتاريخية والنفسية، ليتحمل الإنسان مسؤولية الاستخلاف، على الأرض كما وضحتها العقيدة الإسلامية بما يتصل بالإنسان ومصيره، وأصل وجوده على الأرض وقدرته العقلية والبدنية على تحمل الصعاب، وخلق فرص جديدة للحياة المادية والروحية في هذا الإقليم الوارث، المنتج بعد أن أكملت (الحنيفية) دورتها الزمنية بنبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله ودورتها الجغرافية، بتطهر البيت العتيق (بيت الله الحرام) من رموز الشرك ليشع من دائرته الجديدة نور المبادئ التي جاءت لتحرير الإنسان من ظلم الإنسان، وتذكير الجميع بعبوديتهم إلى السلطان (الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد)، وجعل هذه المفاهيم السماوية، عقائد حيوية تعالج مشكلات الإنسان في هذه الحقبة من تاريخ البشرية.

لقد ورثت العقول الكوفية (علوم السابقين وحكمتهم ومكارم أخلاقهم، تأسيا بقول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله (ما جئت ألا لأتمم مكارم الأخلاق) وهو المخاطب بصريح النصوص من المنقول (وأنك لعلى خلق عظيم)[1]... لتصبح المسيرة الإسلامية اللاحقة صدى لهذا الخطاب الصريح؛ التكاملي.

(١) القرآن الكريم/ سورة القلم٤/١٧.

ولما كانت قضية الإنسان هي جوهر ذيوع الإسلام وانتشاره في مشارق الأرض ومغاربها، يمثل الصورة التي حفظها لنا التاريخ قبل أن يكون العامل الميتافيزيقي عن الحياة الثانية، هو العامل الحاسم في قضايا التحرير ودخول دائرة الدين الجديد، من خلال الحوار العقلاني الهادئ، وخارج (حقبة الفتوح) والتحرير في القرن الأول التي اقتضتها ضرورات النداء ليكون الدين إلى (الناس كافة)، لا سيما في القرنين الثاني والثالث للهجرة النبوية الشريفة.

استناداً لهذا الفهم للقضية، جاءت الإشكالية التي روتها لنا المصادر الموثوقة عن دية المرأة (العقل) عبر طريقين الأول: يمر من نصية المدينة المنورة التي اجتمع عليها كل من سعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ/٧١٢م) مع موقف الإمام جعفر الصادق عليه السلام (ت٤٨هـ/٧٦٥م)، في مقابل، مواقف كل من (ربيعة الرأي=المدني) (ت ١٣٦هـ/٧٥٣م)، و(إبان بن تغلب الكوفي)- ت ١٤٠هـ/٧٥٧م ومذهبيا، موقف (أبو حنيفة النعمان بن ثابت ت١٥٠هـ/٧٦٧م) حول مسألة واحدة تتعلق بالإنسان، وأعني بها (عقل المرأة) أوديتها.

ومجمل هذه القضية لا تخرج من حيث الجوهر عن الاتجاه النصي من المدينة المنورة، والاتجاه العقلي للكوفة؛ التي جاءت معبرة عن تضايق الأولى من (إطلاق حرية العقل) في قضايا (النص) وتضايق الثانية من تقييد حرية ذلك العقل.

ولكل موقف مرجعيته ومبرراته فالنصيون يرون الصواب في (عدم الاجتهاد في مورد النص لشمولية الشريعة لقضايا العقيدة في كل زمان ومكان)، على حين يرى العقليون، (تبدل الأحكام في كل زمان ومكان). على ضوء القاعدة الشرعية القائلة (اختلاف أمتي رحمة) في قضايا (الاجتهاد) التي ترى أكثر من ممر أو حل للمشكلة الواحدة، إذا كانت تتعلق بحياة الإنسان.

وسنجد كيف كان الجذر التراثي الحضاري لإقليم الكوفة مصدراً للنزعة العقلية للكوفيين، وقد جاءت مكملة لهذه النزعة في علم الكلام والحكمة والزهد، في البصرة وواسط والتي استكملت مدياتها في بغداد، بعد تأسيسها سنة (١٤٥-١٤٨هـ) واتخذها عاصمة للدولة العباسية، التي حل فيها بيت الحكمة مركزاً فكرياً عالمياً ورث جميع روافد التراث ومستجداته.

فما هو السؤال الفلسفي الذي طرحه الكوفيون وأجابوا عنه معبرين عن النزعة (العقلية)- وليست الإقليمية الطبقية؟ النزعة (العراقية) في التاريخ العربي الإسلامي؟ وكيف حقق حوار الأجيال بين السلف والخلف في الربوع السومرية والاكدية والبابلية والكلدانية، ثم العربية الإسلامية؟ وهو ما سنحاول إيضاحه في المبحث اللاحق أن شاء الله.

ثانياً: الكوفة بين إشكالية الموقف والسؤال الفلسفي.

١- الطبيعة العقلانية للسؤال الفلسفي:

النزعة العقلانية التي نوهنا بها السطور الفائته، كانت ترسم حدود العلاقة مع النزعة المحافظة التي تحرص على التمسك بالنص، وتقلل حدود حرية العقل، في الشريعة، كجزء من حساسية تعاملها مع موارد النص، هذه النزعة التي اسطف بسببها ربيعة الرأي مع أبان بن تغلب، وأبي حنيفة، في مقابل موقف المحافظين والمحدثين من قضية (عقل المرأة=ديتها). تشريعياً وفكرياً قادت (الكوفة) مقدماته التاريخية، والثانية سمته مدنية.

تخبرنا المصادر ومن بينها ما رواه مالكاً في (الموطأ) عن لسان شيخه ربيعة الرأي (ابن أبي عبد الرحمن)، أنه سأل سعيد بن المسيب عن عقل المرأة قائلاً لشيخه: (كم في إصبع المرأة؟ قال: عشر من الإبل، قلت: كم في الإصبعين؟ قال: عشرون من الإبل، قلت: فكم في ثلاث أصابع؟ قال: ثلاثون من الإبل قلت: فكم في أربع أصابع؟ قال: عشرون من الإبل قلت: والكلام ما زال مرويا على لسان ربيعة الرأي في حواره مع شيخة سعيد بن المسبب:- لماذا؟ قال ألا تعلم أن المرأة ناقصة عقل، قلت (حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها؟قال سعيد: اعراقي أنت؟ قلت بل عالم يتثبت أو جاهل يتعلم، قال هي السنة يا ابن أخي[1] بهذا جاء حكم الشرع ولا اجتهاد في مورد النص.

يفسر الزرقاني (محمد بن عبد الباقي) شارح موطأ مالك، قول سعيد العراقي أنت: بمعنى: هل تأخذ بالقياس العقلي الذي هو سمة عراقية كوفية امتدت مظاهرها إلى البصرة التي شهدت تشكل النزعة المعتزلة العقلية[2] والكلامية الأصولية، منذ اعتزل واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ) مجلس الحسن البصري (ت ١١٠هـ) وقيام الاتجاه القائل بمسؤولية الإنسان عن أفعاله، ما دام عاقلاً حراً مختاراً في إتيان تلك الأفعال بما يعبر عن العدل الإلهي ومصداقية الوعد والوعيد في الخطاب المقدس! تلك حقيقة يؤكدها قول سعيد لتلميذه (ربيعة الرأي)[3]: أعراقي أنت: مع علمه أنه من المدينة المنورة؛ طرحه بطريقة (تعجبية) وبما يشير إلى سريان المنهج العقلاني-الكوفي- العراقي، إلى

(١) الإمام مالك: الموطأ للجلال السيوطي، المسمى بتنوير الحوالك. القاهرة ١٩٥١جـ/ ٢ص ١٨٦.

(٢) عبد الستار الراوي: فلسفة العقل دار الشؤون الثقافية/ بغداد ١٩٨٤ص ١٣- ١٤٥ وكذلك للراوي: ثورة العقل دار الشؤون الثقافية/ بغداد ١٨٩٢ص ٥- ٢٩٩.

(٣) محمد بن عبد الباقي الزرقاني: شرح الزرقاني على الموطأ القاهرة ١٩٦١(الجزء الخامس) ص١٥٣.

قلعة النص والحديث والمحافظة (المدينة المنورة) فلم يعد عقل ربيعة يقبل أن (تعطى المرأة نصف الدية حين تتجاوز الثلث[١] في جرحها.

وجد البعض أن حكاية ربيعة مع شيخه ابن المسيب لم تكن الوحيدة في التراث الإسلامي، خلال الحقبة المذكورة حصرا، فلقد تكرر حوار من هذا النوع، وفي ذات القضية، وفي المدينة المنورة بين أبان بن تغلب (الكوفي) والأمام جعفر الصادق عليه السلام، بعد أن سمع أبان الكوفي الحكم والأنف وأثار عجبه، كما سبق وعجب منه ربيعة الرأي: قائلاً في حضرة الصادق عليه السلام (سبحان الله يقطع ثلاثا فيكون عليه ثلاثون، ويقطع أربعاً فيكون عليه عشرون أن هذا كان يبلغنا ونحن في العراق (الكوفة) فنبرأ ممن قاله ونقول: الذي جاء به شيطان) فيرد عليه الإمام الصادق (جعفر بن محمد الباقر عليه السلام): (مهلاً يا أبان-هكذا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله: أن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية. فإذا بلغت الثلث، رجعت إلى النصف[٢].

هذا وغيره يعني محاكمة عقلية لنصوص صريحة من السنة النبوية الشريفة، وليس فيما لم يرد فيه نص من القضايا بعد أن وضعت (النصوص) تحت مشرط العقل والرأي وحكمه حتى بدا وكأن (تحكيم العقل)[٣]. أو (عقلنة النصوص) سمة عراقية كوفية مشهورة كتب عنها الشافعي (ت ٢٠٤هـ) متحدثاً عن اختلاف العراقيين[٤] وكما تجلى في سير عبد الرحمن ابن عمر الأوزاعي (ت ١٥٧هـ/٧٧٣م).

جميع-هذا دفع بالشيخ أمين الخولي كما يقول جمال الدين بالتعقيب على حوار ربيعة الرأي والتسمية التي لحقته، كانت من جراء منهج تفكيره الذي تابع فيه العراقيين بعامه والكوفيين على وجه الخصوص قائلاً (أن اسم الرأي لحق بربيعة أنما هو إشارة إلى «العقل والذكاء»[٥] وليس التقليد الأعمى-وهذا منهج كوفي-عراقي! لذلك جاء السؤال الاستنكاري التعجبي من سعيد:«أعراقي أنت؟» مع علمه بأنه من المدينة المنورة «إشارة إلى أن العراقي-الكوفي-كان معروفاً باعتماده المنطق العقلي، في تعامله مع المشكلات والظواهر والأشياء، وحتى النصوص! وهو ما ورثته مدرسة بغداد لاحقاً.»

أن السؤال الفلسفي عن معقولية الأحكام خلفه ذخيرة عقلية جمة كانت سمة هذا الإقليم سابقاً، وستكون سمته اللاحقة، كمنهج فكري شرق وغرب، ووصل مراكز فكرية إسلامية قصية! ستكون سلاحاً بيد عشرات المفكرين الذين تأقلموا على المناخ الكوفي في جهادهم العلمي في شرقي الدولة الإسلامية في طبرستان وما وراء النهر.. ولعل (الحسن الناصر الاطروشي الكبير) (ت ٣٠٤هـ) واحد من هذه الرموز حين حول مليون مواطن من سكان الجيل وطبرستان في بلاد الأفغان إلى الإسلام اعتماداً على هذا المنهج العقلي[٦]، وكان من بين المهتدين بهدي هذا السيد الذي هو واحد من الدارسين في الكوفة ومن أحفاد عمر الأشرف بن زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في دعوته (الزيدية)، البويه الذين سيكون لهم شأن كبير في تاريخ الدولة العباسية خلال الحقبة (٣٣٤هـ -٤٤٧هـ) وهو ما سمي بخلاف واقعها السياسي وينصرف السؤال الفلسفي: أعراقي أنت؟ إلى معنى يشير إلى أسلوب للتفكير والتحليل الفلسفي، والتحليل العلمي، والتركيب المنطقي، والاستنتاج العقلي، والاستدلال كسمة (كوفية-عراقية) لا إقليمية تشكل ظاهرة عقلية تقوم على محاكمة المواقف والقناعات والنصوص على أسس عقلانية[٧] تتضايق من قيود النص وحرفيته. وتؤمن بتنوع الحياة وتطورها، مع تطور العصر وتغير الأحوال، والمفاهيم وتقول بنسبية المعرفة، وإنسانية الحلول العلمية، كما شهدت بذلك المجالس التي كانت تعقد في الكوفة والبصرة وواسط ثم بغداد، لفحص العقائد والنصوص في (زاوية العقل) كسمة عراقية/ كوفية ذات مرجعية عقلية[٨].

ولما كان إقليم الكوفة، وما جاوره، قد ورث مناخاً عقلياً وعلمياً عريقاً، إلى جانب الوعي المتفتح الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة النبوية وأخبار الأئمة الأطهار٣ نبتت في هذا الإقليم بذور مذهب الاعتزال، (الممثل الكلامي للاتجاه العقلي في الإسلام في القرنين الثاني والثالث الهجريين) الذي ورثته بغداد وبيت الحكمة بخاصة: وعموم مناهج البحث المعتمدة على أساليب المنطق والجدل، وبفضل هذه الوسائل العقلية انتقل

(١) مصطفى جمال الدين القياس حقيقته وحجيته النجف ١٩٧٢ص ١٠٥.

(٢) محمد الكليني: الكافي(طبع حج طهران) ١٣٢٥هـ(الجزء الثاني)ص٣٢٣.

(٣) علي حسين الجابري: الفكر السلفي عند الشيعة الأثنى عشرية(عويدات) بيروت ١٩٧٧ص ٨١- ٨٥.

(٤) الإمام الشافعي الأم(الجزء السابع) طبعة القاهرة١٩٦١ ص٣١١- ٣١٢.

(٥) جمال الدين(مصدر سابق) القياس: ص١٢١.

(٦) جلال الدين السيوطي تاريخ الخلفاء طبعة دمشق(١٣٥هـ/١٩٣٢) وصورتها القاهرية١٩٥٩ ص٣٦٧. قارنه بكامل مصطفى الشيبي الفكر الشيعي ط١ مكتبة النهضة بغداد١٩٦٦ ص٤٣.

(٧) كتب عن ذلك الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد(ط١ القاهرة ٣٤٩هـ الجزء الثامن ث٤٢٤ وابن النديم في الفهرست طبعة القاهرة ١٣٤٨هـ ص٣٥١ والدرامي في: رد الدرامي علي بشر المريس: تحقيق محمد حامد فقي، القاهرة ١٣٥٨هـ ص١٤٢ الاصفهاني، حلية الأولياء القاهرة ١٩٣٢ الجزء الرابع ص ٣٢٠.

(٨) يراجع من المعاصرين الذين كتبوا عن هذه المنهجية) الشيخ محمود الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي ط١ القاهرة ١٩٢٠ ص١٣٧- ١٣٨ وكذلك هنري سيرويا: فلسفة الفكر الإسلامي ترجمة محمد إبراهيم القاهرة ١٩٦١ ص ٤٣ و٤٦ ويراجع أيضاً كتابنا الفكر السلفي ص ٧٣.

النطق وأدواته، الجدلية إلى التشريع والأصول والفقه ممثلاً بمدرسة الرأي العراقية (الكوفية لأبي حنيفة) والمتناغمة مع مدرسة الكلام المعتزلي البصرية، ثم البغدادية والتي بفضلها قاد العراق، الحركة العقلية (الفلسفية) العربية الإسلامية ردحاً من الزمن، ولم يتحقق ذلك لو لم يمنح (العقل) في هذه الربوع. سلطة تشريعية لظروف أملتها طبيعة الحياة وتطورها ألاحق في زمن العباسيين فراح يبحث عن حدود (الحسن والقبح) في الأفعال والمواقف والمسائل ذات المضمون الكلامي والأخلاقي والجمالي، التي نضجت هنا وتجاوز أصحابها (قيود النص)[١] قناعة منهم بنسبية الحقائق والأحكام والحوادث، وهذا هو محور مدرسة الرأي العراقية. ودفعاً لكل تهمة تقول للشيخ مصطفى عبد الرزاق يقول فيه (أن الرأي في الأحكام الشرعية هو أول ما نبت من النظر العقلي عبد المسلمين نما وترعرع في ظلال القرآن، ونشأت فيه المذاهب الفقهية، واينع بين جنباته علم فلسفي هو علم أصول الفقه، قبل أن تفعل الفلسفة (اليونانية) فعلها.. ولم تهبط مكانة الرأي في الفقه الإسلامي إلا في دور الجمود[٢] لهذا السبب قلنا أن (مدرسة الكوفة) هذه، كانت ذات فاعلية ساعدت عليها عوامل كثيرة اجتمعت فصاغت المنهج الفكري (العراقي) ومن ثم التشريعي لمدرسة الرأي المعتمدة على قاعدة (عقلانية) تقول (بتبدل الأحكام بتبدل الأزمان)[٣] مما يوجب إبقاء حلقات الاجتهاد مفتوحة لاستقبال كل جديد وليتحقق ذلك التجديد في ضوء فكرة القرون والإصلاح التالية: ومثل هذا المناخ العقلاني، لا يمكن فصله عن جذوره الحضارية العريقة في هذه الربوع، الممتدة -كما قلنا، بين الحيرة السريانية ونينوى وتكريت[٤] ذات التنظير المسيحي الشرقي لتجد في المستجدات، والعقل المبدع، والمنهج العلمي، فرصة بناء تجربة حضارية (عرابية/ إسلامية) تمثلت (عملياً) بأبرز المذاهب العملية (الأحناف) والمسائل العقلية التي أثارها هشام بن الحكم (ت١٩٩هـ/٨١٥م) والإنجازات العلمية التي حققها جابر بن حيان الكوفي (ت١٧٨هـ/٧٩٤م) وفلسفياً بأبي يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (ت ٢٥٢هـ/) وشعرياً شاخصة بأبي الطيب المتنبي (ت ٤٥٣) وقبل هذا وذاك في الخط الكوفي الرائع والمدرسة النحوية الكوفية وهو ما سوف نفحصه بإيجاز في الصفحات الآتية/ والتي بفضلها استقام صرح (مدرسة الحلة) لاحقاً، وازدهر البحث المنطق والفلسفي بعد أن تراكمت تجارب محمد بن إدريس ٥٩٨هـ الحلي إلى أن وصلت إلى (العلامة الحلي)[٥] جمال الدين بن المطهر، (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) في الحقبة اللاحقة مما لا مجال لدخوله في هذه الدراسة.

حقاً لقد كان النازلون في الكوفة أغلبية عربية جلهم من مستوى حضاري يفوق الآخرين-وكانت الكوفة في حضارتها أصيلة هاضمة لا مقلدة، وإن الحس القبلي فيها كان ضعيفاً بحكم وعي أهلها الحضاري هذا ما قاله أستاذنا الشيبي عن هذا الإقليم.

٢- نماذج من عقلانية السؤال الفلسفي الكوفية:

من أجل أن تكتمل مديات البحث عن ثمار السؤال الفلسفي، المعبر عن (المنهجية الكوفية=العراقية) سنعرض لنماذج منها عرضاً موجزاً على سبيل المثال لا الحصر. تاركين لغيرنا فرصة الوقوف عند الجوانب الإبداعية الكوفية في الزهد والتصوف وفنون الكتابة والخطوط وقضايا النحو واللغة وضروب البحث العلمي والأخلاقي والجمالي وحتى الفقهي الزيدي[٦]. والحنفي الذي أنجزه زيد بن علي عليه السلام من فقه هذه الربوع، إلى أن ثار في الكوفة صلب ببابها أواخر الدولة الأموية أو ذاك الذي وضعه أبو حنيفة النعمان بن ثابت.

أ- أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ومدرسة الرأي:

أ/١- مال أبو حنيفة (٨٠-١٥٠هـ ٦٩٩- ٧٦٧م) إلى الرأي في الأحكام الفقهية بعد أن شك بمصداقية الأحاديث وكثرة الكذب على النبي صلى الله عليه وآله. فكان على رأي أستاذه حماد بن سليمان (ت١٢٠هـ/٧٣٧م) الذي كان بدوره تلميذاً لإبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي (ت ٩٥هـ/٧١٣م) في الكثير من المواقف العملية والكلامية.

أ/٢- صنف أبو حنيفة إلى جانب (الفقه الحنفي) في علم التوحيد والصفات كتاب (الفقه الأكبر)[٧] فأثبت الاستطاعة وخلق

(١) عرضنا لذلك مفصلاً في كتابنا: الفكر السلفي ث ٧٥، ٧٧ مستعينين بتاريخ بغداد للبغدادي الجزء الثالث عشر ص ١٣٣.

(٢) مصطفى عبد الرزاق: التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ط١ القاهرة١٩٤٤ ص١٢٣ و١٥٦/١٥٧.

(٣) الجابري الفكر السلفي: ص٨٣- ٨٤.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان طبعة دار صادر(الجزء الثاني) مادة تكريت بيروت ١٩٥٦ ص ٣٨- ٣٩.

(٥) كتابنا: الفكر الفلسفي صفحة٢١٣و٢٢٥. ويمكن الوقوف على أمهات الإنجاز الفلسفي والعقلي الكلامي للعلامة الحلي في مبادئ الوصول إلى علم الأصول ط١ النجف الأشراف ١٩٧٠(المقدمة التي تشير إلى كتب: أداب البحث والإنجازات المفيدة في تحصيل العقيدة: كتاب الألفين، وأنوار الملكوت وبسط الكفاية وتحرير الأبحاث الثالثة، وتلخيص المرام وتهذيب العقول في علم الأصول والخلاصة، والدار المكنون في شرح القانون(لابن سينا) وشرح الإشارات السينوية وفوائد الأحكام وغير ذلك كثير(الفكر السلفي ص ٢٣١- ٢٥١).

(٦) زيد بن علي: الصفوة تحقيق ناجي حسن مطبعة الأيمان بغداد ١٩٦٧ ص٤٠/١٦ وكذلك لناجي حسن: ثورة زيد ين علي ط١ مطبعة الاداب النجف الأشراف ١٣٨٦هـ ص١٤٢- ١٧٦.

(٧) علي الجابري، الفكر السلفي ص٨٢ نقلاً عن(أبو حنيفة الفقه الأكبر ملحق شرح العامري ط مصر ١٩٠٥/١٣٢٣ ص١٥ أو ما تلاها).

الأفعال، وقال بالإصلاح، وهي من المباحث الكلامية الصرفة.

أ/٣- خالف المعتزلة في قضايا الوعد والوعيد وقال بالقدر، وبثبات الأيمان، حتى عدة البغدادي رأس المرجئة[١].

أ/٤- لقد كانت مدرسة الكوفة هذه مدرسة فلسفية، آمنت بفكرة تبدل الأحكام في كل زمان ومكان، لذلك منحت العقل سلطة تشريعية واسعة، واعتمدت على القياس، وبالضد من خبر الواحد عند المحدثين[٢] لهذا السبب عدت مدرسة الرأي التشريعية، في الكوفة الظهير العلمي للخط النظري، الفلسفي والكلامي الناشئ في البصرة والمستكمل شروطه اللاحقة في بغداد.

أنها حقاً مدرسة من صلب البيئة العراقية ذات الجذر الحضاري العقلي التحرري الذي جمع بين النزعة العقلية المعتزلية وحركة التحرر العلمية الفقهية.

أ/٥- مثلما كان لهذه المدرسة رأي في (الفرض والواجب والمندوب) المستحب- والحرام والمكروه والمباح.. حتى قال الصفدي (ت ١٣٦٢/٧٦٤م) أن «غالب الحنفية معتزلة» لهذا السبب هاجمها الاوزاعي (ت٧٧٣/١٥٧) وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ/٧٧٨م) الذي جادل أبو حنيفة كثيراً[٣] كان ذلك بفضل تركز البحث الحر منذ القرن الأول الهجري في الكوفة ربما بسبب وقوعها على مقربة من أعرق منبع حضاري للقوانين والشرائع... ونقصد بها البيئة البابلية الوارثة للعقائد والأفكار العريقة[٤] في بلاد ما بين النهرين والسهل الرسوبي.

وعلى رأي الشيخ مصطفى عبد الرزاق، فلقد «عبرت كل الأبحاث المنطقية اليونانية» (والسريانية) من الجهمية (نسبة إلى الجهم من صفوان). إلى المعتزلة، وما راج مذهب الاعتزال آلا لما فيه من مظاهر البحث العقلي والاعتماد على أساليب المنطق والجدل، فكان بذلك هو المذهب السائد بين المذاهب الكلامية، ومن المعتزلة انتقل ذلك المنطق إلى التشريع ممثلاً بأبي حنيفة وأتباعه [٥] وبقية رجال مدرسة الرأي العراقية مع ذلك تبقى إشارة الشهرستاني مهمة في قوله/ عن ثورة زيد في الكوفة إنها كانت تحظى بتأييد أبي حنيفة.

بـ- جابر بن حيان الكوفي (ت ١٧٨هـ/ ٧٩٤م):

عربي من قبيلة ازد. كان والده صيدلياً في الكوفة (اقرباذي) لكن قتل في طوس بتهمة الدعوة للعباسيين في أخريات الدولة الأموية، عاش جابر في بغداد وصادق البرامكة وبعد نكبتهم فر إلى الكوفة وعاش مستتراً فيها، ولم يعثر له على أثر في الكوفة الأبعد قرنين من وفاته على أثر بناء باب دمشق بعد أن عاش في هذه المدينة مدة طويلة، غادرها في أخريات حياته إلى مدينة أخرى[٦]. وتوفي هناك لقد اتصل بالإمام جعفر الصادق عليه السلام في المدينة المنورة. ألّف مائة واثني عشر كتاباً أبرزها كتاب الخواص الكبير الذي يحتوي على إحدى وسبعين رسالة، إنه أستاذ الجميع.

هذا إلى جانب تأليفه في علوم أخرى، كالطب والموسيقى والتنجيم والطلسمات والرياضيات والفلسفة، لقد احتفظ جابر بن حيان، بخاصية الفصول الخمسة في مذهبه وهي (الكيمياء وعلم التكوين وعلم الخواص وعلم الميزان وعلم الطبيعة)[٧] حتى قال عنه علماء العصر لقد كان لجابر ملارسمطو قبله في المنطق، فهو أول من استخرج حامض الكبريتيك من الزاج الأزرق ودعاه بزيت الزاج وأول من اكتشف الصودا الكاوية وأول من اكتشف حامض النتريك والهيدروكلوريك وعمل من مزيجهما (الماء الملكي) وله موسوعة في الكتب الكيمياوية وغيرها من العلوم وكان له دراية دقيقة في صناعة الذهب ونظرة إلى الكون، والمادة وتطرق إلى سبل استخراج العقاقير والأدوية والسموم ودرس خواصها الكيمياوية بطريقة علمية تكاد توصله إلى مرتبة العلم الحديث[٨] وله كتاب (الرحمة) يكفي للرد على تقولات البعض من المستشرقين القائلين بأسطورة (جابر) إلى جانب كتاب الخواص[٩] كما له كتب عديدة مثل اسطقس الاس على رأي الفلاسفة (طبعة باريس١٩٢٨) ومخطوطة (كتاب المقابلة والمماثلة في المطبعة الألمانية) وكتاب الاسطقس الأس الثاني والكتاب الثالث، وكتاب البيان، وكتاب السموم، وكتاب الإيضاح، وجميعها معروفة بعضها مطبوع والأخر مخطوط وجلها عند الأوربيين ولا سيما الفرنسيين[١٠] من العلماء المستشرقين.

جـ- هشام بن الحكم (١٩٩هـ- ٨١٥م):

متكلم متعدد الاهتمامات، سمع من الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعاش ظروف الحوار والجدل الفكري المتعلق بقضايا الكلام والعقيدة، محاولاً الخروج بموقف (وسط-معتدل) بين الخط الفكري الغالي (المتطرف) والخط الذي يحرص على

(١) البغدادي: تاريخ بغداد ٣٧٥/١٣.

(٢) علي حسين الجابري/ الفكر السلفي/ ص ٨٣.

(٣) أيضاً ص ٨٥.

(٤) أيضاً ص٧٢- ٧٣.

(٥) مصطفى عبد الرزاق: تمهيد: ص ٢٨٨- ٢٨٩ وكتابنا الفكر السلفي ص٧٥.

(٦) فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء دار الرشيد بغداد ١٩٨١ ص٣٦- ٤٥.

(٧) أيضاً ص ٤٦- ٤٧.

(٨) أيضاً ص ٥٠.

(٩) أيضاً ص٥٣.

(١٠) أيضاً ص ٥٤- ٥٧.

التمسك بالنصوص لا سيما في تلك الموضوعات التي جاءت رداً على قضايا ومشكلات القرن الهجري الأول في الساحة الإسلامية عامة، وإقليم الكوفة على وجه الخصوص، انه باختصار من (الشيعة القطعية)[١] ولما كان منهج الباحث هنا، أيجاز الأفكار المتعلقة بهذه الشخصية الكوفية (المنتخبة) وغيرها من الشخصيات ذات الحضور المتميز في تاريخ الفكر العقلاني- الفلسفي سنشير إلى أبرز ما عرف عن هشام بن الحكم الكوفي:-

ج/١- البحث في العصمة وضروراتها الحيوية المعبرة عن العدل الإلهي والعناية الربانية بالبشر بعد انقطاع نزول الوحي، بختم الرسالات السماوية بالإسلام الحنيف؛ مما يوجب وجود (مسددين) يواصلون مسيرة الدين؛ قالها للتخفيف من نزعة (الغلو) وتقديس الأئمة، بما يخرج بهم عن الإنسانية الكاملة[٢].

ج/٢- جاءت أفكاره عن (التجسيم) على أسس عقلية كلامية هي في حقيقتها خطوة جريئة-تجاوز فيها أراء الغلاة والمعتدلين من الكوفيين[٣].

ج/٣- لما كانت (الإمامة) عنده، وراثة لعلم النبوة بحسب مفهوم (العصمة) والتسديد، جادل هشام بن الحكم المعتزلة ومفكري الشام، داخل المدينة المنورة، وفي الكوفة، وفي المجالس التي تعقد لهذا الغرض، منطلقاً من القاعدة القائلة (أن القلب هو الحكم لا الجوارح)[٤] في الأعمال.

ج/٤- وبسبب انقطاع النبوة بنص الخطاب المقدس الصريح تتأكد أهمية (الإمامة) عند هشام بن الحكم وتوجب بحسب المناخ الديني والسياسي-وجوب الأمام وأهمية وجوده[٥] على الرغم من اختلاف سبل اختياره الأئمة في تلك الحقبة التي بسطت فيها السلطة العباسية نفوذها السياسي، وراحت تعمل على إيجاد موقفها العملي والنظري، في ظل صعود الاعتزال في البصرة، وبغداد، وقيام بيت الحكمة، ليقود النشاط الفكري والعلمي ويستقطب اهتمام المفكرين، ويفتح أمامها أفاق البحث العقلاني الحر، في مقابل شروط المدينة المنورة المتشددة، في النصوص والأحاديث، و ضبط سبلها ووسائلها وسلاسلها، إلى جانب محتوياتها، والذي كان بقيادة الأئمة الأطهار. نعم، أن هشاماً يرى بوجود (الإمام)

(١) الشيبي: الفكر الشيعي ص ٢٢، نقلاً عن مقالات الإسلاميين للأشعري ٨٨/١- ٨٩.
(٢) الشيبي: الفكر الشيعي ص٢٨.
(٣) الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع(مطبعة الزهراء).
(٤) أيضاً ص ١٤٧.
(٥) أيضاً ص ١٤٨- ١٤٩.

صمام الأمان في مواجهة نزعات الغلو التي طفقت تتسع مدياتها في أوساط العامة والخاصة؛ مما ترك رد فعل لدى الحساسين من الأثني عشرية لمواجهة المواقف التي ينم عنا شيء من هذا الغلو تمسكاً بالبعد الإنساني للأئمة ومنهجهم الذي لخصه الصادق عليه السلام قائلاً (وما شيعة جعفر إلى من كف لسانه وعمل لخالقه، ورجا سيده، وخاف الله)[٦] ونقل عنه هشام بن الحكم قوله (لا تقبلوا عنا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة، أو تجدون معه شاهداً في أحاديثنا المتقدمة ولا تقبلوا علينا ما خالف ربنا تعالى وسنة نبينا)[٧].

لقد بذل هشام جهداً فائقاً لمواجهة الإرث الثقيل المتأتي من مغالاة البعض في الكوفة، ولصب العقيدة في قالب من الاعتدال ونزل بالأئمة إلى الإنسانية الكاملة[٨] مستعيناً بقول للباقر عليه السلام يقول فيه (والله ما بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله من حجة، ولا نتقرب إليه إلا بالطاعة)[٩] وبالرغم من جميع ما قيل عنه[١٠] يبقى ذلك الصوت الكوفي الذي لم يغفل حتى الغزالي الزاماته على المعتزلة[١١] لذلك عد واحداً من العقول الكوفية التي وازنت بن حكم العقل[١٢] في قضايا الكلام، وثوابت العقيدة، إنه واحد من معالم إقليم الكوفة وإن كنا نرجح وفاته قبل هذا التاريخ، مادام الاتصال (بالصادق عليه السلام هو محور نشاط هذا المفكر، والصادق كما هو معروف قد توفي سنة (١٤٨هـ).

د- الكندي (أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكوفي) ت ٣٥٣هـ:

صلة الكندي الفيلسوف الرائد للفلسفة العربية الإسلامية، بالكوفة تعود على زمن سابق على مرحلته؛ فلقد قيل أن جده أبا اسحق بن الصباح كان أميراً على الكوفة في ظل خلافة المهدي والرشيد؛ كما ولى والده عليها مدة عشرين عاماً[١٣] ومع أن والده توفي ويعقوب (الوليد) مازال طفلاً، لكن والدته قد رعته رعاية خاصة فدرس في الكوفة القرآن وعلوم الدين

(٦) الجعفي: المفضل بن عمر(الكوفي): التوحيد المفضل قدم له وعلق عليه كاظم المظفر ط٣ المطبعة الحيدرية النجف ١٩٦٩ ص ١٩و٢٨.
(٧) الغريفي: محي الدين الموسوي: قواعد الحديث مطبعة الآداب ط١ النجف ١٣٨٨ ص١٣٥.
(٨) الشيبي: الفكر الشيعي ص٢٨-٢٩.
(٩) سيد إبراهيم الموسوي: عقائد الأمامية النجف الأشراف ١٣٧٨هـ ص١٦٧.
(١٠) الشيبي: الفكر الشيعي.
(١١) شرف الدين: عبد الحسين المراجعات مطبعة الآداب/ نجف ١٩٤٦ ص٣١٢.
(١٢) علي حسين الجابري: الفكر السلفي ص ٩٠-٩١.
(١٣) كوركيس عواد: الكندي يعقوب بن اسحق، حياته وآثاره مطبعة التمدن بغداد(ب ت) ص٥.

والكلام، بعدها انتقل إلى بغداد المدينة التي ورثت النشاط العلمي والعقلي لإقليم الكوفة بخاصة، وتراث الإنسانية بعامة، لاسيما بعد قيام بيت الحكمة، زمن الرشيد وفي بغداد أصاف إلى خبرته الكلامية (المعتزلة/ والمنهج الكوفي) ما تيسر له من تأليف يونانية وسريانية وغيرها[1] فلسفية ومنطقية، كان بفضلها رائداً للفلسفة العربية الإسلامية، بل عده بعضهم من حذاق التراجمة في الإسلام[2] حتى قيل عن الكندي الكوفي أنه في بغداد قد ترجم من الكتب الكثير وأوضح منها المشكل، ولخص المستصعب وبسط العويص[3] وكان همه أن يقول بوحدة الحقيقة مع اختلاف سبلها وإذا كنا قد استوفينا منهج الكندي العقلاني والمعرفي في دراسة سابقة[4] عرضنا فيها لهذا الفيلسوف طريقة في البحث الفلسفي عبر الأسئلة الأربعة (هل الباحثة عن الآنية، وما الباحثة عن جنسها وأي الباحثة عن فصلها ولم الباحثة عن علتها التمامية[5] وعلى أساسه خاطب الخليفة العباسي (المعتصم بالله) قائلاً عن الفلسفة أنها (أعلى الصناعات الإنسانية، منزلة وأشرفها مرتبة لأنها أي الفلسفة (علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان لأن غرض الفيلسوف في علمه هو إصابة الحق وفي عمله، العمل بالحق[6].

أما جوانب فلسفته المختلفة فلقد استوفاها أستاذنا الدكتور حسام الالوسي في أوسع دراسة معاصرة[7] وقف فيها عند دراستنا المنوه عنها في أعلاه[8] كما أحصى خلاصات الكثير مما كتب عن الكندي قديماً وحديثاً فلم يقتصر إنجاز الكندي (الكوفي) على الفلسفة ومباحثها المختلفة بل امتد نشاطه الفكري إلى ميادين علمية وعملية، وسمته بسمة الموسوعية التي أصبحت ظاهرة بين المفكرين اللاحقين في مدرسة بغداد الفلسفية ودوائر بأثيرها شرقاً وغرباً وشملت أبحاث الكندي الموسيقي، والطب، والفيزياء والكيمياء والأخلاق

(١) أيضاً ص ٦-٧.

(٢) أيضاً ص٨.

(٣) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فواد العيد القاهرة ١٩٥٥ ص٣٧-٧٤. وكذلك: ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء بيروت(ب ت) الجزء الثاني ص ١٧٩.

(٤) علي حسين الجابري: دراسة تحليلية لمنهج المعرفة والتعليم عند الجاحظ والكندي(مجلة دراسات عربية وإسلامية) ع٣ السنة الثالثة بغداد ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ ص٨٥.

(٥) أيضاً ص٨٩.

(٦) أيضاً ص٨٨-٨٩ نقلاً عن كتاب الكندي إلى أحمد المعتصم بالله في الفلسفة الأول: حققه وقدم له وعلق عليه أحمد فؤاد الاهوازي القاهري ١٩٤٨ ص ٧٧-٧٨.

(٧) حسام محي الدين الالوسي: فلسفة الكندي وأراء القدامى والمحدثين فيه دار الطليعة بيروت ١٩٨٥ ص ١٠-٣٦٣.

(٨) أيضاً صفحة ٣٦٤-٣٦٥

وعلوم المجتمع، وصناعة السيوف، والمعادن وغيرها من دراسات، استحق بفضلها موقعه العالمي بين ستة عشر فيلسوفاً وعالماً بحسب المقاسات الغربية[9]. وعلى الرغم من النجاحات التي حققها الكندي على صعيد المنهج العقلاني، والعلمي، النظري والعملي التي يطول شرحها فأن هذا المفكر كان بحق، رمزاً للمنهج الكوفي العراقي العربي الإسلامي فصالح بين الفلسفة والعقيدة (الشريعة) وأسهم في إنتاج (المصطلح الفلسفي) العربي وإصلاح الترجمات الجارية في بيت الحكمة، وحقق الكثير على صعيد التطبيق، وإلى جانب ريادته لم يكن الكندي مقلداً لفلاسفة اليونان بل كان مبدعاً امتلك زمام البحث الفلسفي، وأشرف على نشاط بيت الحكمة فكان بحق فيلسوف العرب الذي خلف للمكتبة العالمية مئات الكتب والرسائل في موضوعات شتى نشر بعضها وما زال البعض الأخر في خزائن الغرب غير الذي فقد منها، إنه ما زال من الموضوعات البكر في البحث الفلسفي مع ذلك لم ينج الكندي من حسد الحاسدين أو نقد الناقدين أو تأمر الكائدين وكيدهم، حتى سرقوا خزانة كتبه، واتهموه بالبخل وأكل الربا وبجميع المثالب التي لا يقبلها منطق ولا عاقل، انتقاماً منه، وحقداً على عبقريته ونجاحاته الفكرية والعلمية والعملية لقد كان الكندي واحداً من أعمدة (إقليم الكوفة) في مكوناته العقلية والروحية الأولى، وفي عالمه الأرحب (بغداد) عاصمة الدنيا التي ورثت جميع مناخات الإقليم وسماته وخصائصه العراقية فقامت مدرسة بغداد بهذا الدور في هذه الحقبة، والقرون اللاحقة لتشع على العالمين.

هـ- المتنبي أبو الطيب (٣٠٣- ٣٥٤هـ):

شاعر خالد، ذائع الصيت عبقري الإنجاز، قيل فيه وعنه الكثير، مما لا مجال لا يراده هنا، ما جمنا في دائرة التذكير ليس إلا بعبقريات إقليم الكوفة لاسيما الأدب فيها، والشعر (السحر الحلال).

لقد قيل «ومع أن المتنبي ولد في مدينة الكوفة العاصمة الأولى للفكر العراقي قبل بناء بغداد، وعاش في باديتها، أبان فتوته.. قصد بعدها بادية السماوة[10]»

لكنه كان على وجه التحقق في الكوفة سنة (٣٢٥هـ) يحضر مجالس العلماء والفقهاء[11] فيها، وفي بغداد، ليزداد معرفة وعلماً، ويتنفس ذلك المناخ العقلاني الثوري الذي هو

(٩) فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء(مصدر السابق) ص ٥٨-٩٧ أشار فيه إلى مؤلفاته وموضوعات البحث العلمي والفلسفي والعملي.. بما لا مجال للتفضل فيه هنا.

(١٠) محمود العبطة: المتنبي ذلك الشاعر البدوي مطبعة عصام بغداد ١٩٧٧ ص٨.

(١١) عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد أباه: دراسة في نسب المتنبي)دار التاخي) بغداد) ١٩٧٤ ص ٥٢-٥٣ و٦٣-٦٧ وكذلك ص ١٠٩ و١٢٠و١٢٨.

طابع هذه البيئة وذلك الإقليم منذ زمن بعيد؛ ومهما يكن من تفسير لثورة هذا الشاعر الفذ وما انعكس على شعره من تناقض أو مباهاة أو مدح لذاته، فأن الرجل: نتاج مرحلته، وعجينة إقليمه، ومرآة عصره، جسد في قوله، أو بوعي (المتنبي) ودفع به إلى الترحال، والانتقال، وملاقاة الأمراء والقادة والسادة والأشراف أو ذم أو شكوى أو هجاء؛ إن شخصية أبي الطيب، لخصت لنا غربة ذلك المفكر واغترابه، وبحثه عن ذاته، ومثله المفقودة، وحقوقه المصادرة؛ هكذا ظن هذا المفكر المرهف الحس، وهو في ذروة وعيه للواقع وتقاطع ذلك الواقع مع المثل الأعلى، الذي شب عليه هذا الفتى في بادية الكوفة، أو في حاضرتها: لذلك لا نستغرب ممن حكم عليه (بالاستجداء) فهو حينا يبيع الماء-السبيل- على جمل في أسواق الكوفة، وحيناً بطوي القفار، مادحاً هذا أو ذاك، في حين أنه يتعالى على الناس ويدعي الفضيلة[1] ومثل هذا الحكم لا يخلو من تعسف لأن صدى كلمات المتنبي مازالت وستبقى تتردد في أزقة الكوفة، وجنباتها، وفي بطون الوديان-مادام هناك من يقرأ الديوان فالعدالة وإحقاق الحق، وإعانة الملهوف، وحماية الضعيف، مبادئ، طالب بها المتنبي، ونادى على الجميع لإعلاء شأنها والإنسان، حتى يعيش إنسانيته لحقيقة، لابد من أن يجد المناخ المناسب لمثل هذا العيش، ولا يقع ضحية، حاكم أو حكومات ظالمة مستبدة شرعت السيف على رقاب رعيتها في غياب الشروط الدينية السليمة لاختيار الحاكم أو الخليفة.

إن إحقاق الحق أو وضع الإنسان المناسب في المكان الذي يليق بقدراته، هو المدخل السليم عند المتنبي لعدالة الحياة أو الأمن والأمان. لذلك لم يهدأ لأبي الطيب عيش أو بال ما دامت شروط الحياة الإنسانية العادلة غائبة مما دفع به قلقه إلى الترحال والتنقل: وهو يملأ الدنيا احتجاجاً وتصويتاً من أجل حماية الحقوق: والحرمات والذمار والشوق للديار حتى دفع حياته ثمن هذا القلق الباذخ: وانتهى ضحية فقدان الأمن والأمان في دولة الخلافة، التي هيمنت عليها أسرة آل بويه. وإن كان المظهر الاسمي والرسمي للعلاسين: فذهب هذا المفكر الكوفي الفذ الذي يقال عنه أنه سليل النسب الشريف: ذهب ضحية دوافع غير عقلانية، تركاً خلفه (رأسماله) الشعري الثر إلى ما شاء الله من الزمن: يستذكره الناس عند كل معترك. ولعل في هذه السيرة، ما يفصح عن حقيقية الرجل، وبلاغته وشعره، وحكمياته، ومدحه وقدحه، وبكائياته لا بصفته الفردية بل بعده واحداً من أعمدة البيئة الكوفية.. في حقبتها الوسيطة، بعد أن ورثت تراثاً ثراً، وأعطت في ظل الإسلام، أضعاف ذلك التراث من الفقه والكلام والعلم والحكمة والأدب.. الذي بنا حاجة إلى مثله في هذه الأيام لكي نواجه به تحديات شياطين العالم.

خلاصة القول:

هكذا يتناغم حوار الأجيال عبر التاريخ الأقاليم الذي شهد بواكير الوعي الإنساني، أدباً وحكمة وعلماً وسياسة ومجتمعاً وشريعة، وعقيدة، حتى ليطول الحديث عن المكونات الحضارية لإقليم الكوفة والمقدمات الحضارية للسؤال الفلسفي، الإعجازي الذي يلحق بكل تعليل، أو تدليل، أو قناعة؛ وصف (العراقي) و (العراقية) وكأن سمات هذه البيئة تنبت (حكمة) وعلماً وجميع ما يمنح العقل الإنساني مشروعية في التفسير والإقتناع؛ وعلى هذه المنهجية، سارت الحياة في إقليم الكوفة، الوارث للتراث العراقي العريق للسهل الرسوبي، وأرض السواد وحضارات السومريين والاكديين والاموريين البابليين والكلدانيين: ليضعها في طابع عربي وقالب إسلامي ويمنحها هوية جديدة تستجيب للعقيدة الجديدة التي طلعت على الناس كافة لتكون منهج حياة وعيش وعبادة وقول وسلوك وفن وجمال:

وإذا كان السؤال الاستنكاري: (أعراقي أنت) ينطوي في أجابته على مغزى حضاري عقلاني، متوثب! فأن مسيرة الحياة في هذه الربوع، خلال وبعد ملابسات هذا السؤال، قد أنجبت كلاماً وفقهاً وحكمة وعلماً وأدباً يكفي أن تكون نماذجه، المتفردة، أبا حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وجابر بن حيان الكوفي وهشام بن حكم الكوفي وأبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الكوفي، وأخيراً أبا الطيب المتنبي الكوفي رموزاً خالدة في جيد الزمن، لا يعدم تاريخها

المعاصر ولا دات جديدة تليق بالعراقي في القرن الحادي والعشرين ما دام قد قبل بحمل أمانة (العدالة) للإنسانية كافة في وجه قوى الطاغوت والاستبداد العالمي وهذا بعض من ذاك، إنه السؤال الفلسفي الجديد: في كل مكان: أعراقي أنت؟ أثابت أنت.

* * *

(١) محمود العبطة: مصدر سابق ص١٤.